العرب
الأحد 2021/10/03
السنة 44 العدد 12198

دراما المراهقين تدق ناقوس الخطر

مسلسل «مدرسة الروابي للبنات» يضرب المعول الأخير في البناء الهش للمؤسسات التربوية

المسلسل يفكّك منظومة المؤسسات التعليمية

يعتبر علماء النفس مرحلة المراهقة بخصائصها ومعطياتها "أخطر منعطف يمرُّ به الشباب، وأكبر منزلق يمكن أن تزلّ فيه قدمه؛ إذا لم يجد التوجيه والعناية الصحيحين"، ومن أبرز المخاطر التي يعيشها المراهقون في تلك المرحلة كما يقول علماء النفس "فقدان الهوية والانتماء، وافتقاد الهدف الذي يسعون له، وتناقضٍ القيم التي يعيشونها، فضلاً عن مشكلة الفراغ". وتبقى هذه الفئة العمرية غاية في الأهمية وشخصيات ثرية لكن لم تقع الاستفادة منها ولا الاشتغال عليها فنيا بالشكل الكافي.

ممدوح فراج النابي
كاتب مصري

تحمل شخصيات المراهقين الكثير من الصفات المتناقضة الواقعة عليها بفعل المؤثرات الاجتماعية والثقافية المتداخلة، كالتقليد والمحاكاة، والصّراع الداخلي بين الرغبة في التقليد والاستقلال الذاتي، وهو ما ينسحب على مقومات الشخصية وتكوينها النفسي والجسماني؛ فتتسم بنية الشخصية الداخليّة بالانسحاب والانطواء الذاتي والبحث عن الهوية الشخصيّة والرغبة في الانفصال عن العائلة، والاغتراب والتمرّد والرفض والخشونة.

هذه الصّفات كفيلة بإنتاج شخصيات ثرية وإشكالية في ذات الوقت، بعيدة عن ثقافة القطيع، وما يزيد الأمر تعقيدًا هو التعويل الكبير على هذه الفئة باعتبار المراهقين هم مستقبل أي أمة، ومن ثمّ إعدادهم ليكونوا مواطني الغد.

> المسلسل يتناول قضايا جوهرية لا تقتصر على المجتمع الأردني كالتحرش بالقُصَّر وسوء استخدام وسائل التواصل

ومع هذا الثراء إضافة إلى ما أتاحه الفضاء السبراني من تعميق لهذه المشكلات، بإتاحته الفرصة لهذه الشخصية التعبير عن نفسها سواء بصورتها الحقيقية أو من وراء قناع، لتحقيق ما عجزت عنه في الواقع، إلا أن الدراما لم تلتفت لهذه الشخصية على حدة، وتعاملت معها في الإطار العام للشخصيات، كأن تأتي في دور الابن أو الابنة، أو الطالبة، وما يتبع هذا من مشكلات هي جزء من مشكلات العائلة، لا أن تقف عند الشخصية في حدود مرحلتها العمرية ومنطلقاتها الفكرية، باعتبارها إشكالية في حد ذاتها، وأن ما يحل على هذه الشخصية من سلوكيات بالإيجاب أو السلب هو بالتبعية نتيجة تأثرها بواقعها وتأثرها بأنماط الشخصيات المحيطة بها، سواء بالتقليد أو المخالفة والمعارضة.

فلنتساءل – بصوت عالٍ – عن كيفية حضور هذه المرحلة في الأعمال الدرامية؟ لا ننتظر كثيرا فالجواب حاضر هكذا، فالحضور لم يكن تمثيلاً حقيقيًا، وإنما كُمُكَمِّل لأحداث العمل وبناء الشخصيات؛ كأن يكون للأسرة أبناء في مثل هذا السن! ويتمّ المرور على مشاكل هذه الفئة مرورًا سطحيًا، ليعكس مدى غياب دور الرقيب داخل الأسرة، أو إشارة إلى تفكّك الأسرة، ودخول هذه الشخصية في صراع وانقسام بين تمردها على واقعها، ومحاولتها خلق واقع بديل بعيدًا عن التوجيهات والأوامر والنواهي التي تظل سيفًا معلقًا على رقابهم ما داموا في هذه المرحلة أي تحت الوصايا الأبوية.

وهذا الانقسام يجعل الشخصيات هلامية ذات ملامح ضائعة فهي مهزوزة ضعيفة الشخصية، واقعة تحت تأثير سلطة (كسلطة الأصدقاء أو سلطة الابتزاز) والنتيجة الطبيعية فإما تسقط الشخصية في الإدمان برفقة أصدقاء السوء، أو تنحرف في علاقات غير شرعية، مما يزيد من مشاكلها، وهو الأمر الذي يستغله أحد الطرفين من الأبوين لإثبات فشل الطرف الآخر في تحمُّل مسؤولية التربيّة دون أن يضع نفسه كجزء من المشكلة ذاتها!

وهذا ما ظهر جليا في مسلسل "حضرة المحترم أبي" (2006) بطولة نور الشريف ومعالي زايد، وزينة وإيمان العاصي، وآخرين. وكذلك ما تعرض له مسلسل "يوميات ونبس" في أجزائه الأولى، (1994 – 2020) بطولة محمد صبحي وسعاد نصر.

نوافذ جديدة

عبر هذه التنويعات جاء حضور شخصية المراهق داخل الأعمال الدراميّة؛ فهو ابن مُشتّت لعائلة لا يسود بينها الحب (على عكس ما بدأت حكايتهما) أو ضحية لانشغال الآباء عنه بحجة توفير حياة ملائمة وتدبير متطلباته، لكن هل تموضع هذه الشخصية (بكل أبعادها وحمولاتها) تحت مجهر أو عدسة مكبرة لتحليل تصرفاتها وسلوكياتها، ودراسة وأثر هذه التنشئة أيًا كانت طبيعتها على تصرفات هذه الشخصية سواء في المدرسة أو في علاقاتها بأصدقائها؟ ثم هل تمّت متابعة التطورات والتغيرات التي لحقت بالشخصية مع دخول الإنترنت، وملاحظة المجالات التي تستحوذ على تفكيرها، أو التطبيقات التي تستحوذ على اهتمامها داخل هذا العالم الافتراضي الغريب؟ الجواب بكل يقين لا؟ وهو ما زاد من تفاقم المشكلات وميل الكثير من المراهقين للانحراف بسبب عدم وجود الموجه أو المرشد لهم!

وبناءً على ما سبق يمكن القول، حسنًا فعل منتجو الدراما- مؤخرًا – بالاهتمام بفئة المراهقين، وتقديم أعمال تتناسب مع طبيعة مرحلتها العمرية، وطرح أفكارها واختياراتها، التي بالطبع هي مختلفة عن ذويها، من الآباء والمعلمين الذين هم بمثابة الناصح الأمين لها (أو المرشد لها في سلوكياتها وأفعالها).

الاهتمام وصل إلى تناول فئات عمرية أصغر سِنا من المراهقة على نحو مرحلة الطفولة ومشاكلها التي تبدو بسيطة إلا أن آثارها مدمرة لاحقًا، فرأينا مسلسلات كـ"خلي بالك من زيزي"- بطولة أمينة خليل ومحمد ممدوح، والطفلة ريم عبدالقادر – الذي تناول مشكلة اضطراب فرط الحركة وتشتت الانتباه عند الأطفال، وتأثير هذا على مستوي تحصيلها الدراسي، وسلوكياتها في مرحلة النضوج، وكذلك ما ينتج عنه من تنمُّر يصل إلى حدّ العنصرية والإقصاء، وبالمثل الجزء الثاني من مسلسل "ليه لأ"- بطولة منة شلبي وأحمد حاتم، والطفلان سليم مصطفى ومنى أحمد زاهر- الذي تعرض لمشكلة الأطفال مجهولي النسب، وفي نفس الوقت تعرض لتأثير الطلاق على الأطفال باعتبارهم الأكثر تضررًا منه.

هكذا طرقت الدراما والأصح وسَّعَتْ نوافذها لتطل على مشكلات أهم من مشكلات رجال الأعمال والمال ودراما البلطجة والأحياء الشعبية والكمبوندات التي لا تقدم جديدًا سواء استعراض الأزياء والقصور والسيارات والعلاقات الهشة وما يتبعها من خيانات، فتخلت عن هذا- في بعضها – والتحمت بمشاكل حقيقية تواجه الأسر في دولاب حياتها اليومي، حتى وإن تعالت- بعض الشيء – في معالجتها، ولكن الأهم أنها طرقتها واقتحمت عالمها.

ومن المسلسلات الدرامية التي اقتصرت على مشكلات المراهقين تحديدًا ما طرحته منصة نتفليكس مؤخرًا بعنوان "مدرسة الروابي للبنات" وهو العمل الثاني لها بعد مسلسل "جن" الذي قدمته في الأردن عام 2019، ومثلما أثار مسلسل "جن" الكثير من الجدل وردود الأفعال العنيفة المعارضة للمسلسل، انتهى بها الحال إلى مطالبة المدعي العام بوقف بثّ حلقات المسلسل في عمّان، خاصّة بعد تصريحات مفتي عام المملكة الأردنيّة الهاشميّة بأنّ المسلسل "بمنزلة انحدار أخلاقي ولا يُمثّل عادات الأردنيين ولا التعاليم الإسلامية"؛ أثار- أيضًا – المسلسل الجديد الذي تعرض حلقاته مع بداية شهر أغسطس (2021)، حالة من الجدل – ولنقل الصحي هذه المرة – على مواقع التواصل الاجتماعي والصحف، خاصّة وأن المسلسل الجديد ابتعد عن المشاهد المنافية للآداب والألفاظ النابيّة التي مرّرها المسلسل الأوّل (جن).

مثار الجدل لما تطرق له المسلسل من قضايا حقيقية، سلّط عليها الضوء، فلم يقف المسلسل عند الثيمة الأساسيّة التي بدأت منها الحكاية ألا وهي التنمّر وآثاره المدمرة على الشخصية الواقع عليها، وإنما عرض في سياقها لموضوعات إشكالية تتعرض لها فئة المراهقين، وإن كان قصر هذه المشكلات على فئة البنات (وهذا واضح في عنوان المسلسل)، إلا أنه لم ينس الطرف الثاني ودوره في الكثير من المشكلات التي وقعت فيها البنات، فكان حضوره موازيًا أو مساويًا على مستوى المشكلات وتأثيرها والنتائج أيضًا.

ربما واحدة من أسباب الجدال التي تزامنت مع عرض المسلسل، تكمن في اعتبار أن بعض هذه المشكلات تقتصر على البلد الذي دارت فيه أحداث المسلسل (الأردن)، وهذا غير صحيح، فالمشكلات التي عرض لها المسلسل لا تقف عند حدود قطر بعينه، وإنما هي مشكلات واقعية وحقيقيّة تتجاوز المحاصصة والتوزيع الجغرافي، بل تتكرّر باطراد في واقعنا العربي على مختلف نظمه الحاكمة وأيديولوجياته المهيمنة، بتنويعات مختلفة – وربما بآثار أكثر خطورة – وإن كانت بخطوطها الرئيسيّة التي عرضها المسلسل.

مصارعة الوحوش

ينتمي مسلسل "مدرسة الروابي للبنات" إلى فئة المسلسلات القصيرة التي بدأت تنتشر مؤخّرًا في الكثير من منصات المشاهدة الرقميّة كـ"شاهد نت" و"نتفليكس"، فالمسلسل الذي جاء مترجمًا إلى أكثر من 32 لغة في 190 دولة حول العالم، وعرض- أيضًا – بالوصف الصوتي باللغة العربية لضعاف البصر والمكفوفين، والوصف النصي باللغة العربية لضعاف السمع؛ يتكوّن من 6 حلقات، حملت كل حلقة عنوانًا مختلفًا، فالحلقة الأولى كانت "المدرسة – مكاني المفضل"، الحلقة الثانية "وبدأت اللعب"، الحلقة الثالثة "واحدة تلو الأخرى"، الحلقة الرابعة "صفحة مكسورة"، الحلقة الخامسة كانت "غريبة"، الحلقة السادسة "هادئة- قبل العاصفة".

فكرة المسلسل الذي كتبت له السيناريو والحوار تيما الشوملي وشيرين كمال، بالتعاون مع إسلام الشوملي، وإخراج تيما الشوملي؛ تدور في إطار مدرسة خاصة للبنات حول ظاهرة التنمر بين الفتيات، وتأثير التنمُّر على شخصياتهن؛ حيث تتحوّل إحدى الشخصيات الواقع عليها فعل التنمُّر إلى شخصية شريرة نقيضة لصورتها الأولى المسالمة المحبوبة من أساتذتها وزميلاتها، تقع في فخ ما حذر منه الفيلسوف نيتشه من قبل في كتابه ما "وراء الخير والشر" بقوله "احذر وأنت تُصارع الوحوش من أن تتحوَّل أنت ذاتك إلى وحش..".

على الرغم من التبسيط الذي انتهت إليه المخرجة في معالجة ردّة فعل المتنمّرة، باتخاذ الانتقام وسيلة دفاع عن النفس، وإخراج الوحش الكامن في داخلها، وكأنها تريد أن تقول لنا إن العدوانية (خاصة العدوان – غير الخبيث – الدفاعي) غريزة فطرية في الإنسان يشترك فيها الإنسان مع الحيوان عندما تتهدّد مصالحه الحيويّة، على نحو ما طرح إيريك فروم من قبل، إلا أن تأثيرات التنمُّر – في ظني وفقًا للواقع وما عرضته الدراما الأجنبية كمسلسل (defending–jacob الدفاع عن جاكوب) أقوى من هذا بكثير، ربما تتجاوز رؤية المؤلفة والمخرجة، حيث ثمّة نتائج خطيرة تصل إلى الانتحار أو القتل وغيرها من جرائم يُحاسب عليها القانون، حيث تتساوى غريزة الموت مع غريزة الحياة (الإيروس).

تبدأ أحداث المسلسل بالطالبة مريم (أندريا طايع) وهي تسرد في علاقتها الآثرة بالمدرسة باعتبارها المكان المفضّل؛ ففيها أصدقاء كثر، والحياة بها حلوة على خلفية مشهد الاعتداء عليها، الذي يحدث تحولًا كبيرًا في شخصيتها، فتتحوّل المدرسة إلى كابوس، هنا الكابوس لا يأتي بسبب كراهيتها للمدرسة أو ضعف مستواها التعليمي وتدني درجاتها، وإنما بسبب الغيرة التي تصل إلى حدّ الاعتداء بالضرب عليها، فكما تقول إحدى صديقاتها رقيّة (سلسبيلا) "إنها لم تكن في يوم صديقة لهم، فهي تشعر بأنها الأفضل وأحسن من الكل"، ولكن هل شعور الأفضلية والتفوق هو ما سبّب غَيرة وحقدًا لدى الآخرين؟ في ظنّي هذا السبب وحده ليس كفيلاً بتولّد مشاعر الغيرة التي تحولت إلى تنمّر وحقد خبيث، خاصّة أن فعل التنمر وقع على الكثير من الطالبات في المدرسة، فقد صار فعلاً يوميًا تمارسه جماعة ليان على غيرهن من الطالبات.

ليان (نور طاهر) هي زعيمة الفتيات المتنمرات، تُمارس تنمرها وسلوكياتها العنيفة على الجميع منذ لحظة جلوسها في باص المدرسة أثناء رحلة اليومية إلى المدرسة، فتستهل أفعالها العنيفة بالسخرية من مريم، ثم بعد ذلك من طالبة تجلس على المقعد المجاور، وعلى دينا (يارا مصطفى) صديقة مريم، بل يصل بها العنف إلى تجاوز العنف اللفظي والحركي إلا العنف المادي بالاعتداء البدني، فتسكب ترموس الشاي على دينا لأنها لم تستجب لها وتغير مكانها كما طلبت، وأثناء هروبها من الباص، تشير إلى إحدى الطالبات وهي تستعد لركوب الباص بإشارة الموت (قطع الرقبة) لو كشفت عن هروبها، كما يتم الاعتداء على أخت نوف كتحذير من البوح بما رأت.

> حسنًا فعل منتجو الدراما العربية بالاهتمام بفئة المراهقين، وتقديم أعمال تتناسب مع طبيعة مرحلتها العمرية، وطرح أفكارها

هكذا تبدو الشخصية الأولى من ضمن ثلاث شخصيات غير سويّة في علاقاتها بأصدقائها، تمارس السلطوية والعنف، كما تجبر الجميع على المداراة عليها وتغطية غيابها أثناء اليوم الدراسي، من أجل مقابلة صديقها الشاب، وفي واحدة من أحابيلها للإيقاع بمريم تسخر من تكوينها الجسدي البيولوجي أثناء مباراة كرة السّلة، ولا تكتفي بهذا بل تتطاول عليها في غرفة تبديل الملابس وتتهمها بالتحرش، كل هذا جميل، لكن ما هي العوامل التي دفعت هذه الشخصية لأن تكون بمثل هذه البشاعة؟ وإن كانت في نهاية المسلسل تظهر بصورة نقيضة تبدد هذه الصورة، وهو ما يؤكد أن كل شخصية تحمل في ثناياها الخير والشر، وهيمنة الشر على الخير له دوافعه، من خلال مشهد الدفاع عن نوف (ركين سعد) في حمام السباحة أثناء محاولة أحد مرتادي الحمام التحرش بها، بل دافعت في حقها كي تفضح المتحرش وهو ما رفضته نوف.

المراهقة مرحلة خطرة تعالجها الدراما